





لندن عن دار نشر هيرست سنة 2022، ويبدو أن هذا الإصدار الذي جاء متزامناً مع نشر كتابه الآخر "الطوفان الحرب على فلسطين في غزة" -الذي يمكن النظر إليه باعتباره جزءاً ثانياً أو مكماً لسابقه، يؤكد إيمان المؤلف بضرورة عدم تجاهل حرب شاملة كالتّي تُخاض ضد الشعب الفلسطيني في غزة، حتى لو كان ترجمةً لكتاب صدر قبل نشوبها.

والكتاب إذ يهتم بمعالجة العديد من التصورات والأسئلة المرحلية والقضايا الأخلاقية، فإنه يتتبع المراحل الرئيسة لتطور الحركة الوطنية الفلسطينية وتاريخ القضية والاستعمار الاستيطاني، كما يقدم تحليلاً مركزياً ومقاربة نقدية خالصة تتسم بقدر واضح من الموضوعية والعلمية في الطرح بطريقة تحول دون إتاحة المجال للانتقائية والأيديولوجيات والأحكام المسبقة بحرف البوصلة عن مسارها الصحيح وما يرافق ذلك من تشويه للهويات -بالتزامن مع ما يمكن اعتباره مسرحاً للواقع بطريقة تجعل من الضحية مسؤولاً عن سادية الجراد وظلمه. الأمر الذي يحيل إلى أحد أسئلة بشارة المحورية التي طرحها عبر شاشة الجزيرة منذ نحو 15 عاماً، حيث بدا وقد ضاق صدره بسؤال المذيع حول من يتحمل مسؤولية المدنيين والعزل الذين يقتلون بلا ذنب -وكانه يقطن قلب غزة وقلب مقاومتها، ليواجهنا بسؤاله "كيف يُسأل الدم المسفوح دفاعاً عن ثوابت الأمة والشعب والحضارة عن مسؤوليته عن غطرسة السيف وعنجهيته في القتل؟"



وفي الوقت الذي يشكل فيه الكتابان استكمالاً لنهج بشارة الواضح والرافض لفلسطنة قضية فلسطين ومحاولة إنهاؤها واختزالها باعتبارها قضية الفلسطينيين وحدهم وتفرغها من عمقها العربي، يحاول كتاب "قضية فلسطين: أسئلة الحقيقة والعدالة" نقل صورة واقعية لقضية فلسطين فيما يمكن تصويره بالمقاربة الإثنوغرافية والمراجعة الميدانية لما عايشه الكاتب، وسبراً لأغوار القضية وتحليلاً نقدياً موضوعياً لتطورها منذ بداية المشروع الصهيوني الاستعماري في فلسطين وحتى وقتنا الحاضر. ويتوقف بشارة الذي يتحدث من موقع الباحث المنحاز لمجتمعه، لا من موقع المشاهد المحايد، في مقارنته عند العديد من المحطات والمنعطفات التاريخية الهامة التي شهدتها القضية الفلسطينية، وخصوصاً تلك التي مرّت بها خلال العقود الثلاثة الأخيرة؛ مثل اتفاق أوسلو و"صفقة القرن". كما يقدم المؤلف تحليلاً تاريخياً وسياسياً معمّقاً للقضية الفلسطينية بعد نكبة 1948، الأمر الذي جاء مقترناً مع عرض للمراحل



الرئيسية في تاريخ القضية، ومعالجة لتداخلها مع المسألة اليهودية، ومع "المسألة العربية"، كما سمّاها، وتأثيرهما فيها.

ويبدو أن بشارة حين أشار في المحاضرة سالفة الذكر إلى أنّ الحديث عن خلفيات الحرب الجارية في قطاع غزة ووصف معاناة الناس في فلسطين فقط، من دون توسيع النقاش، سيغدو من باب التكرار واللجوء إلى البلاغة اللغوية في وصف المعاناة التي لا تسعفنا اللغة دائماً في التعبير عنها - كان يؤسس معرفياً وأخلاقياً وسياسياً، إلى جانب تأطيره نظرياً، لما سيقدمه في "الطوفان" من قراءة نقدية تحليلية تولى أهمية خاصة لاستراتيجيات المقاومة وللواقع الجديد الذي تشهده المنطقة بعد العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة ويساهم في بناء لغة تلائم مقارنة هذا الواقع وتستجيب للتحديات الراهنة. يناقش المؤلف في هذا الكتاب ما تمت الإشارة إليه باعتباره حدثاً ما زال كاتبه وقراءه يعايشونه، ويبحث في موضوع كبير وممتد لم تتضح أبعاده أو تعرف خواتيمه بعد، بل ويصعب الإلمام بجميع مكوناته وآثاره، كما يركّز على خلفية الحرب ودوافع إسرائيل لمتابعتها على الرغم من الخسائر التي تلحق بها. وفي حين يرى بشارة أن الكتابة عن بعض جوانب ظاهرة اجتماعية ما من مسافة زمنية أبعد تكون أيسر - ذلك أن انجلاء الغبار عن الظاهرة يساهم في تقديم تحليل شامل وبتيح إفهاماً أكثر للتفاصيل والوقائع، إلا أنه يعتبر أن للقرب الزمني من الحدث ومعايشته فضائل عديدة رغم صعوبات الكتابة بأسلوب علمي مع استمرار الحرب.

من ناحية أخرى، وفي سياق تحليل بنية نظام السيطرة في فلسطين وطبيعته إلى جانب محاولة الإلمام بجوانب رئيسية في مسار القضية الفلسطينية والنظر في أنماط التنظيم والفاعلين من البشر والظروف المحيطة بالمقاومة ومكانها وزمانها، يقدم المؤلف في كتاب "قضية فلسطين: أسئلة الحقيقة والعدالة" تكتيفاً لأفكار وتجارب شخصية وأحداث مركزية لا تنفك أبداً عن كونها جزءاً من تحليلاته وتأملاته وكتاباته حول هذه القضية، ذلك في وقت يشهد فيه العالم على استمرار النكبة والمقاومة في غزة. ويبدو أن بشارة الذي تسلسل وتدرج في البناء والترقي على الأنساق قد نجح في الحفاظ على خيط رفيع بين العمل الأكاديمي العلمي والواقع العملي المعاش، وقدم مراجعة تاريخية مستفيضة وجاء بإجاباتٍ شاملةً للأبعاد المختلفة للحالة الفلسطينية وتعقيداتها، من خلال منظور العدسة النقدية لمسألتي الحقيقة والعدالة، ذلك في مسعى منه للمساهمة في تكوين وعي نقدي حول واقع القهر الذي يعيشه الفلسطينيون والثمن الذي يدفعونه لمواجهة التمييز المأسوس والممنهج، وحول تاريخ فلسطين وقضيتها "الكاشفة"



بين طوفان الحقيقة وعدالة الطوفان: قراءة في فكر عزمي بشارة

على حد تعبيره.

الكاتب: سليم أبو ظاهر